

## تكيف السيرة الغيرية في المسرح العربي.. بين النقل والتخييل

كما كُتِبَ ثلاثة كتب أردنيين، هم خالد الطريقي ومفلح العدوان وعبدالكريم الجراح، سيرة الشاعر الأردني عرار في مقاربات درامية لحياته المتصلة، المتعددة، والشاهدة بالشعر على حالات الانكسار والظلم وحب الوطن، ومقاومة الاحتلال العثماني والبريطاني، والمنذرة بحفا عن العدالة الممكنة والحرية والمسأوة.

وكيف الكاتب والمخرج غنام غنام سيرتي أبي زيد الهلالي، أحد أبطال السيرة الشعبية الهلالية، والشاعر بدر شاكر السياب، في مسرحيتين الأولى بعنوان "كانك يابو زيد" استقر فيها الموروث الشعبي برؤية أعادت إنتاج ما في السيرة الهلالية والتغربية من مادة درامية. أما المسرحية الثانية فكانت بعنوان "السياب يموت مرتين".

ومثل غنام كيف الكاتب والمخرج الأردني حكيم حرب سيرة "المهلل" من أيام العرب قبل الإسلام، وكذلك كيف مواطنه الكاتب هزاع البراري سيرة القائد القرطاجي الأسطوري "هانبال"، ولاسيما صراعه مع الإمبراطورية الرومانية الصاعدة حول شطآن البحر المتوسط وأراضيه، تأكيداً على روح التمرد ورفض الخضوع للغالب.

عواد علي  
كاتب عراقي

تستند النصوص المسرحية، التي تكيف سير شخصيات لها حضور في تاريخ الشعوب وذاكرتها، إلى مصادر تاريخية أو ملحمة أو سير شعبية، جامعة بين المنحى التاريخي والمنحى السيري.

ومن المعروف أن تكيف السيرة الغيرية (تمييزاً لها عن السيرة الذاتية) بدأ مع فجر المسرح في تراجميات الشعراء الإغريق، التي تناولت شخصيات الملوك في الملحم والإساطير اليونانية. وعلى غرارها كيف شكسبير شخصيات الملوك والأمراء والقادة، ناهلاً من سيرهم التي روتها الملحم والمصادر التاريخية الإغريقية واللاتينية والإنكليزية والإيطالية والأسكتلندية.

وحذا كتاب الكلاسيكية الجديدة مثل راسين وكورني حذو شكسبير في تكيف سير الشخصيات الإغريقية والرومانية من الملوك أو القادة أو النبلاء، التي تناولتها ملحم هوميروس وفرجيل.

أما في مسرحنا العربي فقد عرفت بداياته، إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر، العديد من المسرحيات التي كُتِبَ سير شخصيات تاريخية من أنبياء وملوك وخلفاء وقادة، ولعل من أبكر تلك المسرحيات مسرحية "يوسف الحسين" للشهاس العراقي حنا جيش المكتوبة عام 1880، وهي تتناول سيرة النبي يوسف مع إخوته كما وردت في العهد القديم.

توالى بعدها ظهور مسرحيات في أكثر من بلد عربي كُتِبَ سير شخصيات ذات مكانة رمزية في التاريخ والفكر والأدب والفن في العالم العربي، وفي الأدب العالمي، مثل مسرحية محمود تيمور عن عبدالرحمن الداخل (صقر قرش)، ومسرحية صلاح عبدالصبور عن الحلاج، ومسرحية الفريد فرج عن سليمان الحلبي، والوزير سالم، ومسرحية نعمان عاشور عن رفاعة الطهطاوي، ومسرحية سعد الله ونوس عن أبي خليل القباني، ومسرحيات الكاتب العراقي محمد تيمور عن المتنبي، المصري، عروة بن السورد، أمية بن أبي الصلت، البيروني، الرازي، الحلاج والحجاج بن يوسف الثقفي، وكذلك مسرحيات مواطنيه الكاتب عادل كاظم عن المتنبي، وعزيز عبدالصاحب عن ابن ماجه، وأبو بشر الحافي، وجليل القيسي عن جيفارا، ونجسكي، وفان كوخ ولوركا.

وأفرد الكاتب والمخرج العراقي عقيل مهدي يوسف، في الثمانينات، بكتابة وإخراج مجموعة مسرحيات عُرفت بـ"مسرحيات السيرة" مسرح فيها سير عدد من الرموز الثقافية العراقية مثل حقي الشبلي، يوسف العاني، السياب، جواد سليم وعلي الوردي بصيغرات درامية لم تفرط بعناصر الصناعة المسرحية لصالح الجانب الوثائقي، أو السيري، بل صهرت الوقائع والمواقف الحقيقية المنتخبة في قالب درامي يقوم على حبكة منامية فيها من الأحداث والشخصيات والصراعات ما يجعلها تتسم بكل خصائص الحكمة الدرامية.

وكيف عدد من الكتاب العرب سيرة الفيلسوف ابن رشد في مجموعة مسرحيات، مثل عز الدين المدني، محمد الغزي، طارق زين الدين وعبدالكريم برنيس، جرى التركيز في معظمها على العلاقة الإشكالية بين المثقف والسلطة، بوصفها واحدة من القضايا التي أثارها الكثير من الاهتمام في العالم العربي خلال العقود الأخيرة، ولبرنيس مسرحيات أخرى، أيضاً، عن رموز تراثية مثل عنتر، ابن الرومي، امرئ القيس، والمتنبي في سياق المسرح الاحتفالي.

### العراقي عقيل مهدي يوسف يعد واحداً من المسرحيين العرب الذين اشتغلوا كثيراً على مسرحيات السيرة

كما كتب الكاتب المصري يسري الجندي مسرحية عن سيرة "عنتر"، وأخرى عن سيرة "رابعة العدوية"، وثالثة بعنوان "الهلالية"، وقدم مواطنه الكاتب محمود عوض عبدالعال رؤية مسرحية لسيرة حياة الأديب عباس العباد بعنوان "القلب الشجاع".

ويعد رحيل محمود درويش كان من المتوقع أن يتجه المسرح العربي إلى تكيف سيرة حياته، وجاءت المبادرة متمثلة بعرض منودرامي عنوانه "حنين" كتب نصه ومثله عبدالحفي الجعبري، وأنتجه مسرح الأحلام في مدينة الخليل الفلسطينية، ثم تلاه عرض ثان عن الفترة المبكرة من حياة الشاعر بعنوان "لقاء الريح"، كتبت نصه فائزة الحيثي السفاريني، وأخرجها عصام سمح البلبيسي في عمان.

أخيراً، نذكر أن الكاتب المغربي الزبير بن بوشتي كيف سيرة الروائي محمد شكري في مسرحية بعنوان "رجل الخبز الحافي"، تناول فيها البعد الشخصي في علاقة شكري بذاته من خلال النيش في ذاكرته الغيبية، ورصد حكايته في مرحلتين، مرحلة طفولته الشقية، ومرحلة شهرته بوصفه كاتباً مشاكساً ومتمرداً.

في أغلب النصوص المسرحية التي نكرناها كيف كتابها سير الشخصيات التي دارت الأحداث حولها، على عكس النصوص التي تستند إلى فكرة ما أو حدث ما أو تتنقل من حالة ما تهيم على مخيلة الكاتب.

وإذا كان بعضها ظل أميناً على تلك السير، مع تكثيفها حسب مقتضيات المسرح، فإن بعضها الآخر كيف سير شخصياتها من منظور الكاتب أو رؤيته لها، فكان لشطحات خياله حضور كبير في رسم أبعادها النفسية والاجتماعية والفكرية، فضلاً عن إسقاطها على شخصيات ومواقف وحالات معاصرة، أو ربطها بالحاضر، الأمر الذي أتاح للنقاد والمثقفين والمخرجين، فرصة قراءتها وتاويلها وفق رؤى ومناطق مختلفة.



سيرة أبو زيد الهلالي ألهمت العديد من المسرحيين العرب

## «رسائل العشاق» رهان خاسر على بريق التصوف

مسرحية مصرية تستعيد جلال الدين الرومي بعباءة تقليدية



الخلاص من الأزمان بترياق المحبة

ومعقبا بمقولاته وأشعاره، ليسهم في توضيح أمر ما أو حل مشكلة مستعصية.

من العناصر الأخرى التي استند إليها العرض في التوليفة المختصرة: الإشتداد الشعري المصحوب بالموسيقى، لقصائد جلال الدين الرومي، والغناء، والاستعراض، والكولاج (تضمين مقاطع من أغنيات أم كلثوم: "كـ" الله "حبة")، والمفارقات الكوميديّة الناجمة عن اختلاف الزمانين الحاضر الآتي وعصر الرومي، والرقصات الإيقاعية التي حاولت الاقتراب شكلياً من نهج المولوية ورقصة الدرويش الدائرية، وما إلى هذه المقوس التي سعت إلى شحن العرض بطاقة إضافية تخرجه من جموده، وتكسر سكون الأداء التمثيلي، خصوصاً لدى الشيخ الرومي الرزين، الذي بدأ أداءه صوتياً في أساسه.

### المسرحية لم تنج من مآزق الكتابات والعروض الممسوسة بهوس التصوف دون أهلية كافية وضرورات معرفية لازمة

اقتصرت ملامح الدراما على مجموعة من الثنائيات العشاقية التي تجسد تعثر العلاقات العاطفية بين الشباب في مطبات الواقع المادي الكابوسي المحبط، ولم يسترسل العصر في استعراض ملابس هذه الإشكاليات، ولم يستغرق في تصوير الصراعات وتحليل أسبابها، وإنما لجأ إلى القفز السريع إلى الحلول من خلال "توجيهات" الرومي، القادم من عالم اليوتوبيا الخيالي، وليس من التاريخ بالتأكي.

سعى العرض إلى تمرير بعض النفحات الإشرافية المستمدة من تراث الرومي، المغالطة لفطرة الإنسانية، والباعثة على استنارة العشق الإلهي وتغذية القوى الروحية والطاقة الإيجابية، وتعزيز القدرات البشرية الكامنة لتخطي القضايا المستعصية. لكن هذه الومضات المؤثرة التي اكتسبت جمالياتها من انغماس الوتريات والنايات والأصوات المنشدة والغنائية العذبة، "النساي يتالم ويفرح فيعطى، منذ قطع من الشجر"، جاءت قليلة وسط ركام التمسح الزخرفي بالصوفية كوعاء خارجي وليس كعضون.

يمكن القول باختصار إن المفارقة الأبرز في عرض "رسائل العشاق" أنه وقع في ذلك الفخ الذي أجهد جلال الدين الرومي ذاته على مدار العرض في تحذير البشر منه "لقد غاب عنكم المعنى، وحضرت الصورة".

بالقول والفعل لكل الأمراض ومواضع الخلل، تحت عنوان عريض فضفاض هو "العشق؛ الإلهي، والبشري: الحب هو الحياة، وطوق النجاة، وهو سر الوجود، وروعة المعبود".

لم يتمكن العرض من التعاطي مع التصوف كجربة نابعة في أصلها من الحياة المهيضة، ولا من الغوص في أعماق فلسفته متكابدة روحية ورؤية واسعة للإنسان والأشياء والعالم، تعنى بالجواهر وتعيد تأسيس الموجودات والعلاقات والمسّميات والمعاني، بقراءة خاصة جديدة لكل ما يحيط بالبشر ويمسهم، قوامها الاستيطان والاستشفاف والحس القلبي، نياية عن المنطق والإعمال الذهني ووسائل الفهم والإدراك المنطية.

أخدر مقام جلال الدين الرومي، العالم الفقيه الشاعر الفيلسوف صاحب اللغة التجريدية متعددة التاويلات والدلالات، في عرض "رسائل العشاق"، إلى مزيج من صورتي الواعظ المباشر في الأعمال الدينية البسيطة، و"سوبر مان" في حكايات ما قبل النوم للأطفال، وأمعن السمتم الشكلي له والأداء اللفظي الفخم في تكريس العبادة التقليدية التي عاد بها حاملاً فوانيسه غير المقنعة وأفكاره المسطحة، التي لم تخرج عن ترديد بعض أبياته الشعرية، والتعليق عليها، ومحاولة شرحها لأبطال العرض من العشاق المازومين المهزومين، بغية إصلاح أحوالهم وحل مشكلاتهم الحياتية، وهدايتهم إلى الفهم القويم لدين الحب، على حد تعبير محيي الدين بن عربي "أدين بدين الحب أني توجّهت زكّائته، فالحب ديني وإيماني".

اعتمد بناء المسرحية على توليفة من العناصر المجترأة، منها تقنية الرسائل التي يتبادلها الأحبة والعشاق بين بعضهم البعض، وتتضح فيها معاناتهم ولواعجهم، وانقسمت هذه الرسائل إلى مكاتبات عصرية بين أبطال العرض من الشباب في مواقف ومشاهد مختلفة تمثل صراعات الحياة وضغوطها ومشكلاتها الراهنة، مثل: الغلاء، البطالة، تأخر سن الزواج، العنف الأسري والتمييز ضد المرأة... إلخ، ومكاتبات تاريخية شهيرة أحال العرض إليها، كتلك الرسائل المتبادلة بين جبران خليل جبران ومي زيادة.

ومع استعراض كل رسالة بصوت قارئها، يظهر جلال الدين الرومي معلقاً

والصدمة، ليكون الشيخ النوراني "ذو العبادة البيضاء والشمال الأخضر"، القادم على عجلة الزمن، بمغابة المارد أو الساحر أو البطل الشعبي المخلص، الذي بيده حلول كل الأزمان الفردية والاجتماعية المعاصرة، والطبيب الشافي



### العرض وقع في الفخ الذي أجهد الرومي ذاته في تحذير البشر منه "لقد غاب عنكم المعنى، وحضرت الصورة"



رفعت مسرحية "رسائل العشاق"، المعروضة حالياً في القاهرة، ورود الحب الحمراء في مواجهة طبول الحرب، مُستدعية شخصية جلال الدين الرومي كأيقونة للعشق والشعر والتصوف في الواقع الحالي المرتبك، لكن المسرحية لم تنجح في تمرير رسائلها الفنية بسبب ضحالتها ووقوعها في الأشكال الخطابية والمباشرة.

شريف الشافعي  
كاتب مصري

القاهرة - يبدو كليشيه التصوف اختياراً سهلاً للكثير من الأعمال الإبداعية في مصر والعالم العربي خلال الأونة الأخيرة، سواء كانت مطبوعة في كتاب أو مُجسدة درامياً بشخصيات من لحم ودم، فمنذ صدور رواية "قواعد العشق الأربعون" للتركية إلف شافاق، وحلم "الأكثر ميعة" يراود المتمسكين بالتصوف والعباديين مغلوطاً، حتى وإن لم يتفاعلوا بجديّة ووعي مع فلسفته وطبقاته العميقة ورؤيته الشاملة التي تنبع الوجود.

ويجري أحياناً امتهان التصوف وانتهاكه بفعل فاعل، وليس من قبيل الساذجة والسطحية، عبر أعمال فنية تتعبد التديس والتلفيق ولي عبق التاريخ في محاولات بائسة لرفض مفاهيم سلطوية ومبادئ مغلوطية، باسم قواعد التصوف، كحض الشعب مثلاً على الامتثال للزهد والاستكانة، بمعنى الترفع عن المطالبة بحقوقه الأساسية، وارتضاء المذلة والفقر إلى الأبد.

من هذه الأعمال الإشكالية التي لجأت إلى ثيمة التصوف كتمشقة جاهزة على أمل مغالطة الجمهور المغفنون شرقاً وغرباً بمقولات جلال الدين الرومي وقصائد العشق الروحية المترجمة إلى كل لغات العالم، مسرحية "رسائل العشاق"، التي تعرض حالياً على مسرح "ميامي" في القاهرة، من تأليف وإخراج محمد إبراهيم، ويصور هبة عبدالحميد، وموسيقى وغناء علي الهلباوي، واستعراضات مناضل عنتر، وبطولة مفيد عاشور وعدد من الفنانين الشباب، وإنتاج البيت الفني للمسرح.

لم تنج المسرحية من مآزق الكتابات والعروض المسسوسة بهوس التصوف دون أهلية كافية وضرورات معرفية لازمة، ولا تغفر النوايا الطيبة بطبيعة الحال خطيئة الهبوط بالتصوف كفلسفة والعشق كمفهوم والمسرح كدراما إلى هذا المستوى البدائي، حتى وإن كان الغرض المعلن نبيلاً، وهو تغليب الروحانيات على الماديات، والتصدي لكل شرور العالم وأثامه بالمحبة والتسامح، ونشر القيم الإنسانية من خلال قصائد ومقولات يتم إلقاؤها كخطب إرشادية على جمهور شارد: "إنهم مشغولون بالدماء، بالفتاء، يدقون طبول الحرب، أما نحن فنندق طبول الحب".

### الحلقة الأضعف

شكلت مسرحية "رسائل العشاق" الحلقة الأضعف في مسلسل الأعمال المرتكزة على التصوف، ومنها على سبيل المثال مسرحية "قواعد العشق الـ40" لفرة المسرح الحديث بالقاهرة، التي استحضرت جلال الدين الرومي إلى جانب صديقه الدرويش الجوال شمس الدين التبريزي في قالب تاريخي، سارده على نحو مجاني ريك كفاصيل علاقتهما التي أسهمت في تحول الرومي من عالم وفقه، إلى فيلسوف وشاعر رفيع الشأن.

بدورها، استعادت "رسائل العشاق" شخصية جلال الدين الرومي كمتصوف وشاعر وفيلسوف وإمام العاشقين، لكن في سياق العصر الحديث الراهن هذه المرة، من أجل استثمار المفارقة